المدنية العربية في الغرب[1]

(٢)

كنت تجد في شخص الامير او الخليفة منهم الكاتب والشاعر والعالم والموسيقي والفيلسوف وكانت قصورهم محط رجال العلماء والفلاسفة وكنت ترى المغنين ينتقلون بآلاتهم وموسيقاهم بين قصور الامراء ليطربوهم بانغامهم وليسلوهم في اوقات فراغهم

ولقد جاء مغنو بروفانس متأخرين لان الشعر الاسباني والبروفانسي ينتسب الى الشعر العربي ولا يجد الانسان صعوبة في ايجاد علاقة بين الشعر العربي الاندلسي والشعر البروفانسي وذلك لاشتمالها على الغزل والنسيب والسجع وتعدد القوافي وطولها

ولقد اثبت المؤرخ آماري ان صقلية مدينة للعرب وكذلك شبه الجزيرة (ايطاليا) مدين لصقلية بابتكار الشعر الوطني بمعنى انهُ منذ قلد البلاط الصقلي البلاط الملكي الاسلامي بدأت عادة الالتفات الى قرض الشعر تلك العادة التي كانت السبب في نهوض الشعر الايطالي

لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلي والايطالي بل انهم امدوا قصصنا بشكلها ومادتها فانك لتجد كتابهم «كليله ودمنه» ولو انهُ من اصل هندي قد ترجم الى كثير من اللغات واخذ منهُ كثير من المؤلفين وهو اصل كتاب «الطراز الاول لحادثات الحيوان» «La prima veste dei discorsi degli animali» لمؤلفه فيرنسو ولا وكذلك لكتاب الفلسفة الادبية La filosofia morale لدوني والمجموعة المسماة «حكومة الحكومات تحت الامثلة الادبية للحيوانات المتفاهمة»
(Del Governo dei regni Sotto morali esempii di animali ragionants Fra Loro)

وقد اخذ الشيء الكثير من كتاب كليله ودمنه بعض القصصيين امثال بوكاشيو

(١) بقية محاضرة القاها الدكتور الاستاذ لويجي رينالدي نزيل القاهرة في نادي خريجي المدارس الايطالية ونقلها من اللغة الايطالية الى العربية الاديب طه افندي فوزي

Boccaccio وبوجيو Poggio وباندينو Bandino وباندلو Bandello ولافونتين La Fontaine ووضعوهُ في كتبهم انظر بتسي Pizzi ترجمة قصص Panciatantra بانشاتنترا وحوادث جيوكوندو Giocondo واستلفو دللورلاندو فوريوسو Astolfo dell'Orlando Furioso وقصة اريوستو Ariosto يجد انها مأخوذة جميعها من كتاب الف ليلة الشهير ذلك الكتاب الذي احتوى على قصص عربية وفارسية وهندية غربية وكذلك فونتي دلورلاندو فوريوسو Fonti dell'Orlando Furioso فانك تجد فيهما الاسلوب واحداً والمغزى واحداً سيما تلك النقطة التي تدور حولها جميع هذه القصص وهي زعمهم انهُ ليس في العالم امرأة عفيفة

وبيننا كثيرون يعتقدون ان العرب هم الذين عربوا (اورلاندو فوريوسو) ولكن هذا محض افتراء ولقد تكلم عن هذه النقطة المؤرخ آماري فقال « اقول ان سرقة وقعت لكتاب الف ليلة ذلك ان اريوستو وحوادث استولفو وجيوكاندو مقلدة من اولها الى آخرها او بالاحرى منقولة من قصص الف ليلة وليلة ماعدا تغيير في بعض الاسماء وفي بعض الظروف القليلة الاهمية »

ومن كتاب للشاعر بترارك Petrarca الى صديقهِ الطبيب الشهير جيوفاني دا بادفا يمكننا ان نفهم الى اي حد وصل النفوذ العربي في ايطاليا فان الشاعر الايطالي ذكر الفخر الذي يرفع بهِ العلماء والحكماء الايطاليون الى نجوم السماء علماء العرب وشعراءهم وفلاسفتهم ورياضييهم وخطباءهم

ولقد اعد دانتي الجبيري مكاناً مشرفاً لفيلسوف العرب ابن رشد اذ وضعهُ في قصيدتهِ السامية La Divina Commedia بالجنة الى جانب كبار العلماء والحكماء

ومن فضل العرب علينا ايضاً انهم هم الذين عرفونا بكثير من فلاسفة اليونان وكانت لهم الايادي البيضاء على النهضة الفلسفية عند المسيحيين. وقد كان الفيلسوف ابن رشد اكبر مترجم وشارح لنظريات ارسطاطاليس ولذلك كان لهُ مقام جليل عند المسلمين والمسيحيين على السواء وقد قرأ الفيلسوف النصراني توماس نظريات ارسطاطاليس شرح العلامة ابن رشد . ولا ننس ان ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب « التفكر الحر » وهو الذي كان يتعشق الفلسفة ويهيم بالعلم ويدين

بهما وكان يعلمهما لتلاميذه بشغف وولع شديدين وهو الذي قال عند موته كلمتهُ المأثورة « تموت روحي بموت الفلاسفة »

وكان بين فلاسفة العرب المشهورين الكندي وقد وضعهُ العلامة كاردانو (العالم الغربي الذي كان يشبه العرب في معرفتهِ لعلوم كثيرة) بين الاثني عشر فيلسوفاً العظماء الذين ظهروا في العالم حتى ايامهِ

وقد ترجم جيراردو داكريمونا في القرن الثاني عشر كتباً كثيرة في الفلسفة والرياضة . ووضع دانتي مع ابن رشد في كتابهِ المذكور آنفاً العلامة ابن سيناء الفيلسوف العربي العظيم الذي يعرفهُ الغرب بطبهِ ورسالتهُ التي وضعها في الطب وهي المسماة « القانون » انما هي سفر جليل استعملت ككتاب للتعليم في جميع المدارس والجامعات سواء في الشرق او الغرب وخصوصاً في ايطاليا فانهُ كان يدرس في سالرنو التي كانت اعظم مدرسة للطب في اوربا

ويرى كذلك من خطاب الشاعر بتراركا الذي اشرنا اليهِ فيما سبق كم كانت شهرة الطب العربي وعظمتهُ في ذلك العهد وها نحن اولاء لا نزال نرى كثيراً من الادوية المجهزة بالصيدليات تحمل اسمها العربي مثل Alchermes القرمز و Giulebbe الجلاب (ماء الورد) و Sciroppo شراب وغير ذلك كثير

كذلك عني العرب عناية عظيمة بدراسة علم النبات وكان اهتمامهم بهِ عظيماً واعطوا منهُ موادكثيرة للطب والصيدلة وانتقلت الينا من الشرق اعشاب ونباتات طبية وعطورات كثيرة مثل Cubebe الكبابة و Zafferano الزعفران و Canfora الكافور الخ

اما علم الكيمياء فقد درسوهُ درساً متقناً وعنوا بهِ كثيراً فكان السبب في اختراع آلات ميكانيكية عظيمة وايجاد اجسام الكيمياء الاساسية الاصلية وكثير من العمليات المهمة مثل التقطير وفتح الطريق الى ذلك العلم الذي صار فيما بعد الكيمياء الحقيقية

دخل علم الكيمياء في الغرب مع اسماء عربية كثيرة لا تزال باقية في لغتنا الايطالية وفي اللغات الاخرى مثل Alcali القلي و Borace البورق و Talco الطلق و Lambicco الامبيق و Elixir الاكسير و Alcool للكحول وهي جمع

كحل وهو مسحوق يستعملهُ كثير من النساء المسلمات ومشهور كذلك لدى الاوربيات وكان يستعملهُ نساء المصريين القدماء منذ آلاف السنين . وكلة كحول معناها الآن « روح النبيذ » ولكن كان هذا الاسم يعطى من قبل للاشياء التي تصير الى ذرات صغيرة . ويقال ان الطبيب الهولاندي بورهاف الذي عاش من سنة ١٦٨٦ الى سنة ١٧٣٨ هو اول من وضع كلة الكحول للدلالة على روح النبيذ

كذلك كان للعرب ولع عظيم بدراسة علم الفلك وجدوا قواعدهُ في Tolomeo فترجموهُ واطلقوا عليهِ اسم المجسطي ودرسوهُ درساً جيداً حتى فاقوا اليونان والهنود اساتذتهم فيهِ لانهم علقوا عليهِ ملاحظات دقيقة واكتشفوا اكتشافات مهمة كثيرة كالكلف الشمسية مثلاً . ومن العرب انتقلت الى اللغة الايطالية اسماء كثيرة للنجوم واصطلاحات فلكية مثل Alidada العضادة و Azimut السمت و Auge أوج و Nadir النظير وغير ذلك

وكانت الهندسة موضع دراسة العرب وابحاثهم وكانت عنايتهم بها كبيرة جداً وقد درسوها على قواعد اقليدس وكان هذا الكتاب اول كتاب يوناني ترجموهُ ووضعوا نظريات مهمة جداً منها حساب المثلثات الكروية Trigonometria Sferica وهم اول من استعمل الخطوط المماسة للدائرة واخذوا من الهنود طريقة العدد المؤسسة على قيمة مواقع الارقام ونقلوها الينا والتي منها اخذنا كلتي cifra وzero فكلتاهما عربية مأخوذة من كلة صفر ومعناها zero . وكان العالم الرياضي الايطالي جيراردو دكريمونا اول من عرف الاوربيين بالارقام العربية والجبر وترجم الى اللاتينية كتاب العالم العربي الرياضي الشهير الخوارزمي الذي اخذت من اسمهِ كلة Algorismo اللوغارتمات وهو علم الحساب على الطريقة العربية

ونشر في الغرب طريقة الحساب العربية ليوناردو فيبوناتشي دابيزا في كتابهِ المسمى اباقوس Abbacus وهو اول كتاب الفهُ عالم مسيحي وفيهِ ايضاً نشر الجبر الذي اخذهُ العرب ايضاً عن الهنود ذلك العلم الذي هو اساس جميع العلوم الحديثة . ولا تزال عندنا اسماء عربية موضوعة تدل على عمليات وقواعد في هذه

العلوم مثل القطايم Alcataym والمقابلة Almocabala والجبر Algebra وهذه الكلمة الاخيرة باقية للآن للدلالة على العلم الذي عرفهُ لنا فيبوناتشي ولكن في الاصطلاحات الحسابية كان العرب يسمون بها احدى العمليات الجبرية الاساسية

وقد ذكر ليوناردو فيبوناتشي في مقدمة كتابهِ أباقوس كيف ان والدهُ الذي كان مسجلا للتجار في جمرك بوجايا (في افريقيا الشمالية) استدعاهُ اليهِ وعلمهُ الرياضة بمدارس العرب العظيمة . وبوجايا هذه كانت مدينة كبيرة ببلاد الجزائر وكانت مركزاً للتجارة والصناعة وكان ينزل بها كثير من اهل بيزا فاخذوا عن اهلها صناعة الشمع اذ كان يصنع منهُ مقادير وافرة في معاملها الكبيرة وتقلوها الى اوربا ومن اسم تلك المدينة جاءت للغتنا الايطالية كلة Bugia ومعناها شمعة

لم يكن اهتمام العرب قاصراً على العلوم بل ان عنايتهم بالتجارة والصناعة لم تكن لتقل عن ذلك فقد اجتهدوا كثيراً في ترقية صناعاتهم وكانت لهم تجارات واسعة فبينما يعجب الشرقيون اليوم لمخترعاتنا وعمل مصانعنا كذلك كان شأننا في القرون الوسطى يوم كنا لا نزال برابرة جهلاء فقد كنا نحار كثيراً ونندهش عند رؤية مصنوعاتهم الغريبة التي كانت تأتينا بها متاجرهم

ولقد كانت الهدايا العظيمة التي ارسلها امير المؤمنين هارون الرشيد الى الامبراطور الروماني شارلمان موضع دهشة عظيمة وكانت تتألف هذه الهدايا على ما حكى المؤرخ اجينارد Aginardo من فيل عظيم وخيمة مطرزة بأفخم تطريز واجلهِ وروائح عطرية ثمينة وشمعدانين وساعة مائية اشياء كانت لا تزال مجهولة عند الاوربيين . من ذلك الحين لفت ذلك الشرق الغريب انظار الغربيين اليهِ وسرعان ما قامت المتاجر العظيمة بينهم وبين ثغور البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود . وقام كذلك كثير من التجار من بيزا وجنوى والبندقية واماالفي والسياح والرهبان مستصحبين معهم مغنيهم وملحنيهم بزيارة الشرق من مصر الى الشام فبلاد الجزيرة فبلاد الفرس ومن اسيا الصغرى الى الهند والصين واستوردوا منها اشياء من كل نوع (انظر بيزى الاسلام ص ٤٤٠ — ٤٤١)

وكان العرب في اسواقهم العظيمة بمصر والشام يحملون مع مصنوعاتهم

مصنوعات اخرى لا تقل عن تلك اتقاناً ونفاسة كانوا يستجلبونها من بلاد الفرس والهند والصين وجزائر بحر الارخبيل الاكبر الغنية وذهب تجار جمهوريتنا الى هناك قبل الحروب الصليبية فنجحوا مع الصليبيين في تأسيس ممتلكات لهم في بلاد المسلمين وفيها وجدت جاليات كبيرة وقد كان تقدمهم يزداد زيادة مدهشة وكان سبباً في نجاحهم وعظمتهم

وكان من اهم الاسباب التي ادت الى نجاح جنوى تجارتها مع طرابلس والمغرب وكانت تلك التجارة عظيمة حتى ان حكومة جنوى رأت ضرورة انشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية وانشئت بامر عال في سنة ١٢٠٧ ميلادية ويدلنا على ذلك ايضاً وجود عدد عظيم من الكلمات العربية في لغة هذه المدينة نسوق هنا منها على سبيل المثال كلة Camalo حمّال Macrama محرمة وغير ذلك كثير

وفي اللغات العامية في جميع مدننا التي كانت لها تجارة مع الشرق وصقلية كلمات كثيرة من اصل عربي دخلت اليها مع التجارة العربية لا تزال معاجم اللغة تحفظ كثيراً منها مثل العنبر Ambra والزعفران Zafferano والزنجبيل Zenjiro والخلنجان Galanga والسكر Zucchero والبن او القهوة Caffé والبن يرد الينا ايضاً من امريكا ولكننا نفضل عليه العربي الذي يسمى Moca (مخا) وهو اسم الميناء الذي يصدر منه في اليمن ببلاد العرب وكلة Caffé جاءتنا من الكلمة التركية Qave وهي مأخوذة من العربية وتدل عندهم على المشروب لا على النبات ذلك المشروب الذي عرف لاول مرة في البندقية في سنة ١٦١٦ وفي ذلك الحين كانت القهوة لا تزال مجهولة في اوربا ولقد قال راهب من الذين زاروا الشرق عنها انها ماء اسود ساخن وكان الفرنسيون لجهلهم اياها يسمونها « شراب الحق » فيا للعجب كيف يتغير الذوق فان الذين لا يشربونها الآن يعدهم شاربوها حمقى

كذلك الطاس Tazza والابريق Bricco كلمتان عربيتان ونقل العرب قصب السكر الى اسبانيا وصقلية ونقلوا ايضاً صناعته وكيفية تكريره واعطونا مع الحاصلات الطبيعية الطرق الصناعية والحاصلات الصناعية مثل العطورات والروائح والبهارات والاقمشة والاجواخ فكم من اشياء شهية وحلوة الطعم وذات رائحة ذكية اعطونا اياها نستعملها لمطابخنا ولزينتنا مثل ماء الورد والمسك والبهار والقرنفل والقرفة وغير ذلك

وزخرفتهم لاقتهم مشهورة فكلمة Damasco البانية الآن تدلنا على النسيج الحريري النفيس ذي الالوان اللامعة التي كانت تخلب الالباب ببهجتها وتطريزها البديع برسوم الزهر والصور وكلمة Baldacchino تذكرنا بذلك النسيج الحريري الجميل الذي كان يصنع في القرون الوسطى في بغداد ثم سمي عندنا Baldacco كذلك كلمة Mussoline اسم نسيج كان يصنع في مدينة الموصل العربية هو نسيج ناعم رقيق كانت تلتف به المرأة المسلمة كيما تخفي نفسها عن اعين الرجال. ولا ننس السندس الفخم الذي كان موضع دهشة الغربيين واعجابهم حتى ولدت الرغبة في تقليده فانشئت لذلك المعامل الكبيرة في اوربا وكان اكبر هذه المعامل واضخمها في بطاليا

وقد نلاحظ ان كلمة Ricamo (ركامو) ومعناها التطريز هي كلمة عربية « رقم » وقد اخذ هذا الفن عن العرب الى اوربا الصليبيون والتجار الايطاليون (انظر بتسى الاسلام ص ٤٥٥ — ٤٥٦) كذلك كلمة اخرى Intarsio الترصيع وهي تدلنا على فن آخر ادخلهُ العرب معهم الى صقلية ومنها الى اوربا ولا تزال الى وقتنا هذا انسجة مرصعة بنقوش وكتابات عربية بديعة مثل التي في القبعة البلاتية الموجودة في بلرمو حاضرة الجزيرة

ولم يقصروا في اجادة الفنون الجميلة بل عنوا بها عناية كثيرة ونبغوا فيها نبوغاً عظيماً فقد اتقنوا الموسيقى والنقش والحفر وهندسة المباني فكان يتردد المغنون والمغنيات الى قصور الخلفاء لتسليتهم واسماعهم الاغاني الجميلة وكان الخلفاء يشجعونهم باجزال العطاء لهم كذلك كانوا يترددون الى مجالس السرور وكانوا يوقعون اغانيهم على الطنبور والرباب والعود تلك الآلات التي انتقلت الينا باسمائها. وقد وضع العرب الطنبور لاصلاح حركاتهم ولمسيرهم ولانغامهم الحربية فاخذه عنهم الصليبيون ثم ادخل الى الجيوش الاوربية

لم يكن للنقش والحفر عند العرب اهمية عظيمة الاَّ ما كان خاصاً منهما بالزخرفة فقد كان في غاية الابداع والاتقان وقد اهملت الصور بسبب الدين فانهُ حرمها خشية ان يعود العرب الى وثنيتهم الاولى

ولكن على الضد من ذلك هندسة المباني فانها كانت في تقدم عظيم . يشاهد

مساجدهم وقلاعهم وقصورهم الغنية بمرمرها اللامع وزخرفها البديع ولا يزال مسجد قرطبة الجميل وقصر الحمبرا الفخم اجمل مباني اسبانيا التي تفخر بهندستها وبمهندسيها. ولقد جدد العرب في مدة حكمهم لجزيرة صقلية مدينة بلرمو العاصمة وملأوها بالقصور الشاهقة البديعة والمباني الانيقة والمساجد العظيمة ولا يزال فيها الشيء الكثير من ذلك الى الآن مثل قصر Ziza الذي كان يسميه العرب القلعة العزيزة

وقد فاتني ان اذكر ان قصر الحمبرا كان اسمهُ عند العرب القلعة الحمراء وقد سميت كذلك لان الحائط الخارجي الذي كان يحيط بها كان احمر اللون . ولا يزال عندنا عدد عظيم من المباني التي قلدنا بها الزخارف والافاريز العربية. واذا دققنا النظر وجدنا ان الهندسة القوطية انما هي الهندسة العربية تقريباً

وكان العرب علاوة على كونهم يعشقون الفن ويهيمون به ويذودون عنهُ يجزلون المكافأة للصناع المسيحيين الذي كانوا يشتغلون معهم في بناء قصورهم ومساجدهم .وكان اهتمامهم عظيماً بالزراعة فعملوا على رقيها واعانها بكل ما اوتوهُ من قوة ذلك انهم اوجدوا طرق الري الصناعية في الحقول ونقلوها الى اسبانيا وصقلية ولا تزال تحفظ الى الآن كلمتين عربيتين خاصتين بالري وهما Secchia ساقية و Noria نورج

كذلك لفظة Risma (رزمة) مأخوذة من العربية وهي تذكر لنا اصل صناعة كان لها دخل عظيم في انتشار العلوم والحضارة اي صناعة الورق التي كان العرب اول من ادخلها فاستعاضوا بالورق عن رقاق الجلد وصحاف العظم التي كانوا يستعملونها للكتابة في ذلك الوقت ولقد انشأوا مصانع عظيمة للورق في الاندلس وصقلية ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في ايطاليا كلها . ومصانع بارما على الخصوص كانت لها شهرة بعيدة . كذلك كلة قطن مأخوذة عن العربية وكم من الالفاظ الموجودة عندنا من اصل عربي يمكنني ان اذكرها لكم فمثلاً اسماء الموازين والمكاييل كلها عربية مثل Quintale, Cantaro قنطار و Rotolo رطل و Rubbio ربعه و Romano رمانه و Carato قيراط كذلك الكلمات التي تدل على الاشياء التي تستعمل في الملاحة وتتعلق بالبحر كلفظة Ammiraglio

اميرال وArsenali Darsena دار الصناعة وGalea خليه و Tartana طراده وCarraca كراكه وكذلك Feluca فلوكه وCassero قصر وCalatafare القلفطه وغير ذلك كثير وهذا مما يدل على انهم كانت لهم بحرية عظيمة واساطيل ضخمة

ويجب ان لا ننسى ان كثيراً من الكلمات التي تستعمل في التجارة من اصل عربي مثل كلمة Dogana ديوان (الجمرك) و Gabella القبالة وTara الطرحه و Tariffa التعريفه و Fondaco الفندق و Magazzino المخزن وغير ذلك

فامة هذه مدنيتها وتلك آثارها ومفاخرها جدير بنا بل واجب علينا ان نحفظ لها تلك السير التي قدمتها الينا واسلفتها لنا . ولست ادري لماذا لا نسمع كلمة اعجاب بالشعب العربي العظيم الذي ترك في طريق المدنية آثاراً عديدة والذي حمل معهُ اعظم المساعدات واجل الخدم للنوع الانساني . فلا يبخل على العرب باعطائهم المقام اللائق بهم وبانزالهم المنزلة التي استحقوها بجدارة الا كل جاهل التاريخ حيث خطت ايديهم صحائف بيضاء فاخرة يجب على كل انسان ان يعجب بهم من اجلها

وقد يحزنني والله كما يحزن غيري ممن ينصفون ان يكون بيننا نحن الاوربيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب وحسبانهم من امة ادنى من امتهم وان نرى كلمة عربي عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن وهذا بلا شك افتراء ونكران للجميل . فان هذا الشعب ولو انهُ سقط من شاهق مجده ونزل عن المنزلة العظيمة التي كان فيها الا ان العربي لا يزال يحفظ صفاتهِ العجيبة وذكاءهُ النادر مما يتحلى بهِ كل متعلم راق . وانا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم وقوة ملاحظتهم الطبيعية وسرعة خاطرهم . وها نحن اولاء لم نصل الى ما وصلنا اليهِ من المعرفة الا بفضلهم فلذلك نشعر بعطف عظيم على ابناء الصحراء ولا نزال نذكر لهم بالشكر والامتنان اياديهم البيضاء علينا في الماضي ولا يسعنا في الحاضر الا ان نمد اليهم ايادينا كي ينهضوا ويتبوأوا المكان اللائق بهم تحت الشمس حتى يشتركوا معنا في استثمار تلك المدنية التي كانوا لها يوماً موجدين وعلى اعلاء شأنها عاملين